

تأملات في سورة العنكبوت

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسع الخلائق خيره ولم يسع الناس غيره ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله بلغ عن الله رسالاته ونصح له في برياته فجزاه الله بأفضل ما جزى نبيا عن أمته ، صلى الله والصالحون من خلقه عليه كما وحد الله وعرف به ودعا إليه،اللهم وعلى آله وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد :

أيها المباركون هذه وقفات مع سورة العنكبوت ، وهي سورة مكية في أظهر أقوال العلماء وإن كانت آياتها التسعة والستون لا تخلوا من بعض الآيات المدنية على الأظهر .

سنقف وقفات مع آيات منها نؤمل بها ـ إن شاء الله تعالى ـ أن ننهل وإياكم من معين القرآن وأن يزدنا الله ـ تعالى ـ علما به ويقينا بتعبده ـ تبارك وتعالى ـ فنقول والله المستعان وعليه البلاغ :

افتتح ربنا ـ جل وعلا ـ هذه السورة الكريمة بقوله : { ألـــم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين } تنوعت الطرائق التي تفتتح بها سور القران الكريم فمنها ـ كما في هذه السورة المباركة ـ ما يسمى الافتتاح بالحروف المتقطعة مثل سورة البقرة ،وآل عمران

ومريم، والحاميم ونظائرها في القرآن ، وبعضا من
السور افتتحت بالقسم قال الله ـ جل وعلا ـ :
{والطور } وقال ـ جل ذكره ـ :{والفجر} وقال
سبحانه :{والضحى}وغير ذلك من السور .
وافتتحت بعض السور بأداة الشرط كقوله تعالى :
{إذا الشمس كورت}وقال ربنا :{إذا السماء
انفطرت} وقال تبارك وتعالى:{إذا زلزلت الأرض
زلزالها}وهذا يصل إلى عشر طرائق ..
هذه السورة افتتحت بالحروف المتقطعة ، والآيتان
الكريمتان اللتان بعد ذلك قال فيهما ربنا ـ جل ذكره
ـ :{ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا
يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله
الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين }أخبر الله ـ جل
وعلا ـ فيها بأمرين عظيمين :
الأول : أنه لابد من الفتنة والاختبار .
والأمر الثاني : أنه لا نجاة إلا بالصدق .
فما من أحد لن يخلص إلى عرصات يوم القيامة
حتى يبتلى ، وأنبياء الله ورسله هم الصالحون من
خلقه هؤلاء أشد الناس ابتلاء ، لكن لاسبيل للإنسان
أن يقف على عرصات يوم القيامة حتى يبتلى ،في
الحياة الدنيا حين الاختبار يكون الإنسان ـ عياذا بالله
ـ كاذبا ، أو أن يكون ـ نرجوا الله من ذلك ـ صادقا ..
ولكن الخلق الذين حولك لا يتأتى لهم أن يعلموا
صدقك من كذبك حتى تلقى الله ، فإذا لقي العباد
جميعهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ حصل ما في
الصدور بعد أن يبعثر ما في القبور ويميز الصادق
من الكاذب ولا ينفع بين يدي الله شيء أعظم من
الصدق قال جل وعلا : { هذا يوم ينفع الصادقين
صدقهم } وقال تعالى :{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله وكونوا مع الصادقين } ..

والفتن تختلف ، فقد كانت في الأمم التي قبلنا أعظم فتنة في الدين بأن يحال بينهم وبين العبادة لتسلط الأشرار عليهم ، وأما في زماننا فقل أن يفتن الإنسان بأن يحال بينه وبين الطاعة لكن جاءت فتنة الشهوات من كل حدب وصوب فأحزبت في كثير من الخلق عن الرب تبارك وتعالى والمسابقة في الخيرات لطاعته والمسارعة إلى مرضاته ، فهذا ما دل عليه افتتاح السورة وقد تكلمنا عن نظائر هذا في دروس قد خلت ..

نقف بعد ذلك وقفات أخرى في آيات متفرقة منها ..

قال الله ـ جل وعلا ـ :{ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ، وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه }هذه الآيات أراد الله بها تثبيت قلب نبيه ـ ـ ، ونبينا ـ ـ آخر الرسل وقد مضت سنة الله في رسل من قبله فقص الله ـ جل وعلا ـ عليه أخبار أولئك الرسل من قبله فقد قال الله في هود :{ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين } فلما بدأ القرآن يقص على نبينا ـ ـ أخبار من سبق جاء القرآن عظيما جليلا لأنه كلام الله في ترتيب سياق أخبار رسل الله من قبل .

قال ربنا ـ وهو أصدق القائلين ـ :{ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه } ولم يكن على وجه الأرض أحد إلا قومه ، فلهذا لما جاء الطوفان لم يبق على الأرض أحدا ، لكن الفرق مابين علوية رسالة نوح ونبينا ـ ـ أن نوحا وإن وافقت رسالته ـ الأظهر من أقوال العلماء ـ أن جميع الأرض كانوا مخاطبين برسالته إلا أنه مرسول لأهل زمانه،أما نبينا ـ ـ فمبعوث

لأهل زمانه ولمن جاء بعده إلى قيام الساعة ، ثم إن نوحا وافق قدرا أن الأرض لم يكن عليها كثير ناس فكان ـ ـ أهل الأرض كلهم بناحية منها ومنهم نوح ـ عليه السلام ـ .

قال الله :{ولقد أرسلنا نوحا } وهو أول رسل الله إلى الأرض ، فقد سماه الله ـ جل وعلا ـ في القرآن بالعبد الشكور قال الله تعالى :{ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا}.

{ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما } السنة والعام من حيث الوقت واحد فهي مرور حول إن كان سنة أو كان عاما ، كلاهما اثنا عشر شهرا إلا أن اللغة ـ وجاء به القرآن ـ يقال السنة في حق ما هو مجدب ومضر قال تعالى :{ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات }وقال جل وعلا حكاية عن يوسف ـ عليه السلام ـ :{قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله } وقال ـ ـ في دعائه على مضر : (اللهم سنينا كسنين يوسف) وعبر بالسنين ولم يعبر بالأعوام ، واشتهر في اللغة وجاء في القرآن أن العام يطلق على ما أخصب ورفع الناس .. قال الله ـ جل وعلا ـ في خبر يوسف:{ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون }

قال الله ـ جل وعلا ـ هنا : {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم}أي يدعو {ألف سنة إلا خمسين عاما}وفائدة الاستثناء هنا أن الله لم يقل ـ ولا ملزم على الله ـ لبث فيهم تسع مئة وخمسين عاما لأن العرب تقول في كلامها على التقريب وعلى التحقيق ، فإن قالوا : إن زيدا عاش مئة سنة أو عمرا عاش تسعين عاما أو تقريبا فقد يكون عاش تسعين عاما تماما وقد يكون قاربها ، وقد يكون

عاش مئة عام وقد يكون قاربها ، فإذا وجد الاستثناء انقطع التقريب وثبت التحقيق .
فمعنى قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:{فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما }
أراد الله ـ جل وعلا ـ تحديد الوقت والزمن الذي عاشه نوح ـ عليه السلام ـ داعيا في قومه تماما تحقيقا لا تقريبا .
{فأخذهم الطوفان وهم ظالمون }
الطوفان في اللغة:كل شيء أحاط بك من ماء أو غيره يسمى طوفان ،فإذا أحاط بالأرض كلها كان ذلك الطوفان أعظم وإلا قد قال الله ـ جل وعلا ـ عن قوم موسى:{ وقالوا مهما تأتنا بآية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع } فذكر الله الطوفان هنا كما ذكر في خبر نوح لكنه في خبر موسى أقل وأخص وكان محدودا على أرض مصر ، ولم يكن محيطا على الأرض جميعا كما هو حاصل في زمن نوح .
وقال الله ـ جل وعلا ـ عن جنة أولئك الأبناء :
{فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون }
فسماه الله ـ جل وعلا ـ طائف لأنه أحاط بالجنة كلها ..
والمقصود : أن هذا الطوفان مختلف عن غيره ، قال الله ـ جل وعلا ـ :{فأخذهم الطوفان وهم ظالمون } والواو هنا واو الحال أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم مع ربهم ـ تبارك وتعالى ـ .
ثم قال الله بعد ذلك :{فأنجيناه وأصحاب السفينة } أي أنجينا نوحا ومن معه من المؤمنين ـ كما ورد مفصلا في سور أخر ـ .
قال ربنا بعدها :{وجعلناها آية للعالمين } أي أن هذه السفينة بقيتن ، وقد روى البخاري في صحيحه

أن قتادة ـ أحد أئمة السلف رحمه الله ـ يقول:
(الحمد لله الذي أبقى هذه السفينة حتى رآها أوائل
هذه الأمة) وهي ـ على المشهور ـ كانت في
الموصل في نهر الفرات من أرض العراق .
وأيا كان الأمر سبق قول أصدق القائلين ربنا :
{فجعلناها آية للعالمين } فأخبر الله نبيه عن خبر
نوح ، والمقصود : أنه تمهل في الدعوة ولا تستعجل
في الإجابة ، وليس لك إلا أعوام في دعوتك لقومك
، وقد دعا نوح من قبلك ألف سنة إلا خمسين عاما
فصبر ، وأنت أولى بالصبر من نوح لأنك أفضل من
نوح {فاصبر كما صبر أولو اعزم من الرسل }
والإنسان لابد له ـ وإن شرفت مراتبه وارتفع قدره ـ
من أئمة يقتدي بهم يصيبون في أشياء ويخطئون
في أشياء إلا الرسل فإنهم محصونون ـ برحمة الله
لهم ـ في أن يقعوا في خطأ ديني .
قال الله ـ جل وعلا ـ بعدها :{ وإبراهيم إذ قال
لقومه } فذكر الله ـ تعالى ـ خبر إبراهيم بعد خبر
نوح لإن الله جمع ما بين إبراهيم ونوح في عطية
عظيمة أن الله جعل النبوة والكتاب محصورة في
ذرية هذين النبيين الكريمين قال تعالى :{وجعلنا
في ذريتهما النبوة والكتاب } ، فبعد أن تفرع الأنبياء
من ذرية نوح ـ عليه السلام ـ قال تعالى في
الصافات :{وجعلنا ذريتهم هم الباقين } فقال
العلماء :(إن جميع من كان مع نوح في السفينة
هلك ولم يبق إلا أبناؤه حام وسام ويافث ، وكنعان
هلك) فالبشرية كلها تنتسب إلى حام وسام ويافث
وبالتالي ينتسبون إلى نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ .
ثم ذكر الله ـ جل وعلا بعد ذلك خبر خليل الله
إبراهيم ..

إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبو الأنبياء لأن أكثر الأنبياء من ذريته ـ عليه السلام ـ وسيأتي لماذا خصه الله ـ تعالى ـ بهذا ؟؟.
دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله وفي مقدمتهم أبيه في خبر معروف ومشهور .
قال الله ـ جل وعلا ـ بعد أن بين الطرائق التي دعا إبراهيم فيها قومه :{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار }
ذكر الله ـ جل وعلا ـ كيف قابل قوم إبراهيم خليل الله ـ عليه السلام ـ في دعوته إياه ، نجم عن هذا بعد أن اتفقوا على حرقه أن الله ـ جل وعلا ـ أنجاه من النار قال تعالى :{فأنجاه الله من النار } حينما أنجاه الله من النار ورأى تلك النعمة آمن هو ولوط فقط قال الله في نفس السورة :{ فآمن له لوط }ثم يأتي واو استئناف قال الله عن خليله إبراهيم: { وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم}
الهجرة إلى الله كثير من يصنعها بدنا وقل من يصنعها قلبا وهو المراد الأول من الهجرة ..،فلأبدان تابعة للقلوب ، وخليل الله ـ جل وعلا ـ إبراهيم من أعظم من مليء قلبه إيمانا بالله ، فلما اشتد عليه قومه قال لهم يخاطبهم بلسان الحال والمقال:
{إني مهاجر إلى ربي } والتجارة مع الله تجارة رابحة بكل حال ، فلما هاجر إلى ربه وهو على ثقة بما عند الله قال :{إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم } قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :{ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين }كما فر إلينا وحيدا بوحدته أكرمناه بالعطايا وكثرنا من ذريته ، ثم أن الله ـ جل وعلا ـ أكرمه بأن جعل النبوة مستمرة في عقبه ، فما من نبي أرسل إلا وهو من ذرية إبراهيم ، ولا كتاب أنزل

إلا وهو على أحد ذرية إبراهيم إكراما له لأنه قال :{ إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم } ، وأنت أيها المبارك لا تملك إلا قلبا واحدا إما أن تهاجر به إلى الله أو أن تهاجر به إلى غير الله ، ولن تهاجر به إلى الله إلا إذا علمت يقينا أنه لا أحد يستطيع أن يثيبك إلا الله ، ولا أحد يستطيع أن يجازيك ويعاقبك إلا الله ، فإذا انقطعت العلائق عن الخلائق عرف المرء أن الله وحده من يملك الأرض يسهل على العباد بعد ذلك أن يهاجروا بقلوبهم إلى الله ، لكن إن بقي الإنسان يخاف من زيد أو عمر أو غيرهما من متاع الدنيا الزائل ثقلت عليه الهجرة إلى ربه .. {ووهبنا له إسحاق ويعقوب } ومعلوم أن يعقوب ابنا لإسحاق ، فوهب الله ـ جل وعلا ـ له إسحاق ومن ورائه يعقوب وجعل النبوة والكتاب محصورة في ذريته إكراما له ..

ثم حتى لا يقع في قلب أحد أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ نال حظه من العطايا في الدنيا قال الله ـ جل وعلا ـ :{ وآتيناه أجره في الدنيا } بأن الأمم كلها تمنت الانتساب إليه ، ولهذا قال الله :{ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين } فكل الملل تمنت الانتساب إليه ، ثم إن الله ـ تعالى ـ قال:{ وإنه في الآخرة لمن الصالحين } والألف واللام وإن جاءت هنا للتعريف فإن المقصود بها الأول بيان أنه أكمل الصالحين عليه السلام ..

بقيت رقيبة عظيمة في المسألة كلها وهي أنها : ما لمناسبة مابين ذكر خليل الله إبراهيم بعد أن ذكر نوح مع أن بينهما أنبياء كثر ؟؟

لأن الله ـ جل وعلا ـ قال :{ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة} وهذا في نوح ، وقال ـ تعالى ـ في إبراهيم :{ فما كان جواب

قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه } فلما ذكر الله ـ تعالى ـ أنه نجا نوحا من الماء ذكر ـ جل وعلا ـ أنه بقدرته ورحمته نجا إبراهيم من النار ، والماء والنار ضدان حاط الأول بنوح فأنجاه الله وأحاطت الثانية بإبراهيم فنجاه الله ولا يقدر على هذا إلا رب العالمين ـ جل جلاله ـ .

قال الله ـ جل وعلا ـ بعدها بآيات :{ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم }..

كل أحد في الدنيا حتى ولو أنه أظهر للناس كبره يعلم أنه ضعيف وعلى يقين أنه بحاجة إلى من ينصره ، وكفار قريش على الكبر الذي كانوا يدعونه كانت هذه الغريزة في قلوبهم لا يستطيعون أن ينفكوا عنها ،ولهذا جعلوا من تلك الأصنام والأوثان ملاذا لهم عند الشعور بالضعف ، فلما جعلوها كذلك لم يزدهم ذلك إلا ضعفا لأنه لاسبيل إلى شيء إلا بحول الله وقوته .

قال الله ـ تعالى ـ :{ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون }

العنكبوت اتخذت البيت واغترت به فالتشبيه من وجهين :

شبه الله الأصنام والأوثان ببيت العنكبوت ، وشبه الله ـ جل وعلا ـ من اتخذ الأوثان والأصنام وليا له بالعنكبوت نفسها ، ثم قال الله في جملة اعتراضية :{ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت } وهنا يقف المرء لأن الله قال بعدها :{ لو كانوا يعلمون } وهو ليس متصلا بقوله ـ جل ذكره ـ :{ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت } لأنه لا أحد يجهل أن بيت

العنكبوت هين ، لكن آخر الآية مرتبط بأولها أي : لو كانوا يعلمون أن هذه الأولياء لا تنفع ، فقريش تعلم أن بيت العنكبوت لا ينفع لكنهم لا يعلمون أن أصنامهم وأوثانهم لا تنفع ولم يقروا بذلك .

وينجم عن هذا : أن الإنسان ينبغي عليه يعظم توكله على ربه ـ تبارك وتعالى ـ ، وهذه الأوثان رغم أن لها حقائق وجودية فكانت تعلق ويراها الناس ومع ذلك قال الله ـ تعالى ـ :{إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شي } ولو كانت موجودة حســا لكن لا أثر لها ، وكل أحد لا يمكن أن يملك لأحد حولا ولا طولا ولا قوة إلا بمشيئة الله ـ تعالى ـ فيما أذن الله أن يقع قدرا من الأحياء ، أما غير ذلك فلا يمكن لأحد أن ينفع أحدا كما قال ـ ﷺ ـ في خطابه لابن عمه ابن عباس :(واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشي لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، و واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) فإذا تحرر هذا وتبين وجب على المؤمن أن يزدلف ويهاجر بقلبه ويتوكل على ربه ـ تبارك وتعالى ـ ويعلم أن كل شي بيد الله ـ جل وعلا ـ ..

والأمور ثلاثة :

1ـ ما كان لله فهذا يبقى أثره حتى زواله حسـا .
2ـ وما لم يكن لله لا يبق له أثر بعد زواله حسـا.
3ـ وما لم يرده الله أن يكون لا يمكن أن يكون لا حســا ولا أثرا .

قال ربنا :{وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الأيات عند الله وإنما أنا نذير مبين }

هذه الآيات وما بعدها تتكلم عن أمرين عظيمين :
** أن النبي ـ ـ نبي مجتبى وعبد مصطفى أراد الله أن يختم به الرسالات ويتم الله به النبوات ..
وحتى يتأتى هذا حفظه الله ـ جل وعلا ـ وعصمه في حياته من أن يقرأ ويكتب
حتى إذا جاء بهذا الكتاب العظيم لم يبق في قلب أحد شبهة أن هذا حصل في أيام الطلب عندما كان يأتي بلاد كسرى وقيصر ويلتقي بعلمائها ، فمنعه الله قدرا أن يصل إلى قراءة أو كتابة حتى تكون النية عليه أعظم والحجة به أقوى ..
قال تعالى :{ ولا تخطه بيمينك }
ثم قال الله ـ جل وعلا ـ بعدها مبينا ما هو القرآن :
{ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون }
لا يمكن لأحد أن يعطى عطية أعظم من أن يكون القرآن في قلبه ويعمل به ، فنبينا ـ ـ بشر وقد يلتفت ميمنة وميسرة لمـــــا يراه من أثرياء الناس و أغنيائهم على البغال والجمال في أيام حياته ـ ـ ، فقال الله ـ جل وعلا ـ له:{ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم } وبعد أن بين له ذلك قال له :{ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا } فنهاه الله ـ تعالى ـ عن أن يمد عينيه ميمنة أو ميسرة وأن القرآن في قلبه ..
وقال الله ـ تعالى ـ هنا :{ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون } فبين الله ـ جل وعلا ـ أن القرشيين طالبوا بالآيات وقالوا :{ لولا أنزل عليه آيات من ربه } فأخبر الله نبيه أن يقول لهم :{ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى } فلا يمكن لأحد أن يرقى قلبه إلى عالم الملكوت ولا أن تستقيم طريقته ولا

أن يخشع فؤاده ولا أن تذرف عينه إلا أذا كان يعلم أنه لا سبيل إلى الله إلا بالقرآن والسنة ، والسنة كلها في آية واحدة :{ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } فمن عظم ما عظمه الله وقدم ما قدمه الله وقدر له أن يقوم ليله بالقرآن فهذا هو الذي أقرب إلى الله وأدنى من رحمته ، ولهذا قال ـ ـ :(من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمئة آية كتب كذا وكذا ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين) فأخبر ـ ـ أن الناس في قراءتهم للقرآن يتفاوتون ، والمقصود من هذا أن الأمر كما قال الله :{ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون }وحتى يتحقق هذا المعنى ـ والقرآن يعضد بعضه بعضا ـ ينظر الإنسان فيما أخبر الله ـ جل وعلا ـ به عن أنبيائه ورسله ممن كانت تتلوا عليهم آيات الله ، فالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى من حيث الإجمال كلها من لدن الكبير المتعال ..

فكما كان على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالتوراة ، وأن يؤمن قوم عيسى بالإنجيل ، وقوم داؤود بالزبور وجب على أمة محمد ـ ـ أن تؤمن بالقرآن ، والقرآن يعلم كل أحد أنه كتاب الله ، لكن في زماننا هذا قل التفات الناس إليه وتمسكوا بغيره على طريقين :

** إما من فتن بتدوين العلماء والكتب وقدمها على كلام الله .

** وإما ـ والعياذ بالله ـ من نظر إلى عالم الشهوات الفسيح فأخذ يستمع إليها يرق لها قلبه وتصغي لها أذنه ، وجعل كتاب الله ـ جل وعلا ـ وراءه ظهريا .

والله ـ عز وجل ـ يقول :{ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح

ومن ذرية إبراهيم وإسرائل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا }
وقال عن قوم سابقين :{ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون آمنا به }
ولما خاطب الله ـ جل وعلا ـ نبيه في سورة مكية ، والقرآن يعد جيلا سيهاجر إلى المدينة ويجاهد ويغزو ويدعو ويبذل المال والنفس كان لابد لهذا الجيل قبل أن يسكن المدينة أن يسكن الإيمان قلبه ،
ولهذا قال الله ـ يخاطب القرشيين ـ :{قال آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا }
فلما قال الله في العنكبوت :{ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم }
لا يسع مؤمن أن يسمع هذه الآيات إلا ويقف ويجعل لنفسه حظا من قيام الليل يقرأ القرآن ويناجي الله ـ جل وعلا ـ بكلامه وبآياته يعظم الله في ركوعه ويدعوه في سجوده ..وفي كل ذلك يستصحب كل نعمة الله عليه وفضله ـ تبارك وتعالى ـ بأن أوقفه الله بين يديه يناجي الله ـ جل وعلا ـ في كلامه وآياته كما فعل المعصوم ـ ـ ..

لما أتتك قم الليل استجبت لها
تنام عينك أما القلب لم ينم
الليل تسهره بالوحي تعـــمره
وشيبتك هود آية اســـــتقم

والمقصود من هذا الخصيصة الثانية :أن هذا النبي الذي أنزل عليه القرآن لم يكن يقرأ ولا يكتب فهو أمي قاد العلماء ..

ثم بعد ذلك قال الله ـ جل وعلا ـ :{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }لا يمكن لأحد أن يفقه الدين حقا حتى يعلم أنه خلق لغاية أعظم وهي عبادة الله ، وهذا أمر لابد وأن يتأكد في قلب المؤمن ، فإذا انشغل بغير ذلك لم يفقه أصلا لماذا خلق !!

لم تخلق لتعمرها ولكن لتعـــــــبرها
فجد لما خلقت وناد إذا سجدت به اعترافا
كما ناداه ذي النـــــــون ابن متى
وأكثر ذكـــــــــــــــره في الأرض دأبا
لتذكر في السمـــــــــاء إذا ذكرت

نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ طلب الولد على كبر ، وطلب من ربه آية لما جاءته بشارة :{فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك } قبل البشارة :{ قال رب اجعلي آية } فآتاه الله آية أنه لا يتكلم إلا بالإشارة { ثلاث ليل سويا } سويا : حال من زكريا ، ليست حال من الليالي أي أنت سوي الخلقة ليس بك عاهة ومع ذلك تخاطب الناس بالرمز ..

إلى هنا والقضية ظاهرة ، قال الله بعدها :{ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار } فلم يأذن الله له أن يترك ذكر الله رغم أنه يعيش ثلاثة أيام آية للناس لأنه ما خلق إلا لعبادة الله ، ولا ينبغي ولو كان في حال كونه آية أن يشغل عن طاعة الله ..

قال الله جل وعلا ({فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً }مريم11) فعبادة الله جل وعلا هي الغاية العظمى من خلق الثقلين ، هنا الله جل وعلا يُنادي عبادهُ الذين آمنوا نداء تشريف ({يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }العنكبوت56) فإذا عزّ

المقام في الأرض ولو وجدت بها الخيرات والعطايا
وما أفاء الله عليك لكن حِيل بينك وبين أن تعبد الله
فاترُك الأرض أياً كانت وإلا المهاجرون الأوائل
الصديق ومن معه إنما تركوا مكة وبها بيتُ الله
لكنهم تركوها لما لم يقدروا على أن يعبدوا الله فيها
فمكة على شرفها ومكانتها وحُرمتها لم تعدُ مكاناً
صالحاً لهم فتركوها لأن الله تعبدهم بأن يعبدوه
أكثر مما تعبدهم بأن يُقيموا في مكة فتركوا مكة
من أجل أن يتأتـى لهم أن يعبدوا ربهم تبارك
وتعالى قال الله (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي
وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) ثم قال ربُنا ({كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }العنكبوت57)
كل وفق الصناعة اللغوية من ألفاظ العموم والروح
إذا كانت في الجسد تُسمى نفس فإذا فارق الجسد
تُسمى روح قال صلى الله عليه وسلم " إن الروح
إذا صعد يتبعهُ البصر " وقد كتب الله جل وعلا
الموت على كل أحد أذل الله به الجبابرة والقياصرة
والأغنياء والفُقراء على سواء والأنبياء وأتباعهم
والكفار ورؤسائهم (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) *إلا أن
أهل العلم يقولون* : ثمانية لا يلحقها العدم :.
العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار
والروح وعجب الذنب فهذه الثمانية لا يلحقها عدم
قال صلى الله عليه وسلم " كل جسد ابن آدم يبلى
إلا عجب الذنب " واتفق العلماء على السبعة
الباقية في أكثر أقوالهم وهي العرش والكرسي
واللوح والقلم والجنة والنار والروح وعجبُ الذنب
هذه لا يلحقُها العدم .
وموت النفس بانفصالها عن جسدها قال ابن سيناء:
هبطت إليك من المحل الأرفعِ *** ورقاء ذاتُ تعزُزٍ
وتمنعِ

هبطت على كُرهٍ إليك وإنما *** كرهت فراقك وهي ذاتُ توجُعِ

الملك ـ أيُها المُبارك ـ إذا نفخ في الجنين الروح الـروح تسري في الجسد كله ولا تختصُ بعضوٍ دون عضو فإذا جاء ملكٌ آخر يقبض الروح من أين ينتزُعها ؟ ينتزعُها من الجسدِ كلهِ فكما انتشرت في الجسد وقت أن نفخ الملك عندما كُنا أجنة تبقى منتشرة في الجسد إذا جاء الملك يقبضُها فيتأتى هنا الفارق في العمل الصالح فإذا كانت النفس مؤمنة وصاحبُها عمل صالحا خرجت روحهُ من فمه كما تخرجُ القطرةُ من فيّ السقاء قال الله (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) أي الروح (وَأَنتُمْ) أي من حول الميت (حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ) أي إلى الميت (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) أي بملائكتنا (وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{85} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة) موضوعُ الشاهد منها أن الله أذل بالموت كل أحد (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فاخبر الله جل وعلا أن الرُجعى إليه فمن أدرك أن الرُجعى إلى رب العالمين تبارك وتعالى لان قلبهُ وخشعت نفسهُ وذلّ لمولاه .

ثم قال الله جل وعلا بعد ذلك ({وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }العنكبوت60) هذه الآية لها مدلولاتٌ عظيمة نقفُ عند بعضٍ منها :

الأول : اثنتان تفرد الله بهما ولم يأذن لأحدٍ من خلقهِ أن يُؤتاها الخلق والرزق فكما أنهُ لا خالق إلا الله فإنهُ لا رازق إلا الله (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم }فاطر3) .

الأمر الثاني : أن كثرة الرزق لا تدل إطلاقاً على صلاح العبد فإن القرشيين قالوا كما قال الله ({وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

}سبأ35) أجابهم الله بقوله ({قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }سبأ36) فأخبر الله جل وعلا أن وفرة العيش لا تدلُ بالضرورة على أنهم قومٍ متقون .

الأمر الثالث : أن الله جل وعلا فضل بعض عباده بالرزق وتحكم في تقسيم رزق عباده ولم يكل ذلك إلى أحدٍ من خلقهِ قال الله ({وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ }النحل71) .

الأمر الرابع : أن الرزق يُقال لهُ أحياناً رزق وأحياناً قوت فما يختصُ بالبدن من غذاء يُطلق عليه قوت ، وما هو أعم وأشمل يُسمى رزقا .

والأمر الخامس : أن الرزق قسمان .: رزق أبدان وهذا يؤتاه البر والفاجر والمؤمن والكافر ، ورزق معارف وعلوم بالله العلي القدير وهذا لا يُؤتاه إلا من وفقهُ الله جل وعلا لمرضاتهِ ورحمتهِ .

وكما سمّى الله جل وعلا ما ينالهُ العباد في الدُنيا رزقا سمّى الله جل وعلا الجنة رزق وهي أعظم الرزق فلما ذكر الله المؤمنين وخاتمة أعمالهم ودخولهم جنة ربهم قال جل شأنه (قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً }الطلاق11) وقال جل وعلا في ص ({إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ }ص54) فسمى الله جل وعلا كذلك نعيم الجنة رزقا وأخبر أنهُ لا نفاد له أي لا انقطاع لهُ ولا انتهاء .

إذا تبيّن هذا كلهُ وجب على المرء أن لا يتكل ولا يعول على أحدٍ أن يُؤتيهُ إلا ربهُ تبارك وتعالى كما قال ربُنا (فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ }العنكبوت17) وهذا كذلك مثلُ الأول يحتاجُ إلى قلبٍ يعلمُ الله حقاً ويعرفُ ربهُ حتى يعظم توكلهُ على خالقهِ جل شانهُ .

قال ربُنا في خاتمة السورة : ({وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }العنكبوت 69)

نختم أيها المؤمنون قبل أن نستمع إلى أسئلتكم بأن المرء في هذه الحياة الدُنيا بأن يُجاهد نفسهِ والنفسُ في الأصل أمارةُ بالسوء ومجاهدة النفس مرتبةٌ عالية لكنها من أعظم أسباب التوفيق أن يُجاهد الإنسانُ نفسهُ التي بين جنبيهِ وأن يُعرض عن هواه ويُقبل على مولاه يتأتى لهُ بعد ذلك الوصول إلى خيري الدُنيا والآخرة ويتأتى لهُ السيرُ على منهاج الله لأن الله تكفل بالهداية لمن سار على طريقهِ وجاهدوا نفسهُ وآمن بمولاه قال ربُنا (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

****

تأملات في سورة البلد

قال الله جل وعلا (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2}) ـ وأنا أُحاول هنا أن يكون درساً علمياً ليس وعظياً ـ (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2} وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3})

البلد المقصود به هنا مكة بإجماع وهي حرمها الله جل وعلا يوم خلق السماوات والأرض ولم تُحل إلا لنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار واختلف العلماء أيهم أفضل مكةُ او المدينة ؟

فذهب جمهور العلماء من السلف والخلف إلى أن مكة أفضل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض " ولم يُحلها إلا لنبيهِ ساعة من نهار ولأن فيها بيت الله والله لم يتعبد الناس بالحج إلا إلى بيتهِ والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة .

وذهب بعضُ المالكية وهو قولٌ يُنسب إلى عُمر في
أمير المؤمنين رضي الله عنه وابنه عبد الله وعليه
بعض المتأخرين إلى أن المدينة أفضل وحُجة هؤلاء
أن الله جل وعلا اختار لنبيهِ أن يموت فيها صلوات
الله وسلامهُ عليه ، ومن حُججهم أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال " لموضعُ سوط أحدكم في
الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " وقال في حديثٍ آخر
" ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة "
فقالوا والروضةٌ أوسعُ من السوط والسوط قال
فيه عليه الصلاة والسلام " لموضعُ سوط أحدكم
في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " وهذا الدليل ردهُ
ابن عبد البر رغم أنهُ مالكي المذهب وقال ليس
المقصود من قول النبي صلى الله عليه وسلم "
لموضعُ سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما
فيها " إلا التقليل من رغبة الناس في الدنيا والدليل
والحديث هنا في منأىً عن الاستدلال ، قلتُ
المسألة خلافيهِ لكن أشكل على بعض المتأخرين
كيف أن الله جل وعلا أختار لنبيهِ صلى الله عليه
وسلم أن يموت فيها .
قال الله بعدها (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (وَأَنتَ حِلٌّ)
تحتمل معنيين : حِل من حَلّ بالمكان بمعنى نزل
فيه وسكن ، فيُصبح الآية قسمٌ بالنبي صلى الله
عليه وسلم وهو مخلوق حال كونه ِساكناً أين ؟ في
مكة .
وآخرون يرون أن حلٌ هنا ضد حرام فيُصبح المعنى
أن قومك استحلوا حُرمتك وأذاوك (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا
الْبَلَدِ) ، ثم قال الله (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) الأكثرون على
أن الوالد آدم ويكاد يُجمع أهل التفسير على هذا
(وَمَا وَلَدَ) أي وذُريتهِ قسم فيُصبح الآية أقسم الله
بأصل القرى والمدن والأماكن وهي ماذا ؟ مكة ،
وأقسم جل وعلا بأصل البشر وهو من ؟ أوبهم آدم

فيُصبح القسم هنا بالأصول لأن الله قال (لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) وما هي أم القرى ؟ مكة ، فقال الله (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) هذا قسمٌ بأصل المكان وقال (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) قسمٌ بأبي البشر الأصلُ الذي نحنُ معشر البشر تفرعنا منه (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3} لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4}) هذا جواب القسم أي خلقنا الإنسان يعيش يُكابد أهوال الدُنيا وشدائد الآخرة ،قال العلماء : أول ما يُكابدهُ المرءُ حال يُولد قطعُ سُرتهِ ثم تستمر المكابدة في طلب العيش والمرض وهموم تربية الأولاد وغيرها مما لا يخفى حتى يُكابد نزع روحهِ ثم يُكابد في القبر ضمة القبر " إن للقبر ضمة لو نجا منها أحد لنجا منها هذا العبدُ الصالح " أي سعد ابن معاذ ، ثم يواجه ظُلمة القبر " إن هذه القبور مملوءةٌ ظُلمةً على أهلها وإن الله ينور عليها بصلاتي عليهم " صلوات الله وسلامهُ عليه يقول ويواجهُ الإنسانُ سؤال الملكين وهذا من المُكابدة ثم يواجه البعث والنشور ثم ينتهي بنا الأمرُ إلى دار القرار إما إلى جنة و إما إلى نار ، يُصبح من الحقائق الواقعة ـ أيُها المُبارك ـ أنهُ لا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، لا يُمكن أن تكون هناك راحة حتى تلقى الله ، أما من حين ما ولدنا إلى أن نموت إلى أن نُبعث إلى أن نُعرض للحساب يبقى الإنسانُ خائفاً وجلاً حتى يُخلف جسر جهنم وراء ظهرهِ ـ أجـــاز الله بي وبكم الصـــراط ـ قال الله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4} أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{5} يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً{6}) أي مجتمع (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) قال جمهور العلماء نزلت في رجل يُقال لهُ أبو الأشد من بني جُمح أنفق مالهُ في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال الله يمتن على بني آدم (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9}) وهذا ظاهر فالله خلقنا في أحسن تقويم ولهذا قال بعضُ علماء الشافعية لو أن إنساناً قال لزوجتهِ أنت طالقٌ إن لم تكوني مثل القمر تطلُق أو لا تطلُق ؟ قالوا لا تطلقُ حتى لو لم تكن أجمل النساء لأن الله قال ({لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم }التين4).
ثم قال الله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) تأتي تُفسرها يتنازعك أمران :
الأمر الأول : مكان الآية ، والأمر الثاني : اللفظ الذي بدأت به الآية ، فالآية بدأت بقوله جل ذكرهُ (هَدَيْنَاهُ) وكلمة هدى في القرآن استخدمت في طرائق الخير والشر في الأغلب قال الله ({وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17) وقال في سورة الإنسان ({إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3) من نزع هذا المنزع من العلماء قال معنى قولهِ تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ما النجدين ؟ طريق الخير وطريق الشر ، ومن نظر إلى موضع الآية من السورة (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9}) وقال الله بعدها (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ونظر إلى اللُغة المجردة فإنّ النجدين مُثنى نجد ونجد في اللُغة المكان المرتفع والآية تتكلم عن لسان وشفتين وبداية خلق فقال (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أي ثديي أُمهِ لأنهما مرتفعان سُميا نجدان فالله جل وعلا هذا الرضيع الذي لا يملكُ لنفسهِ حولاً ولا طولاً ولا قوة هداه الله إلى أن يرتضع من ثديي أُمهِ حتى تستقيم حياتهُ وما كان لهُ أن يهتدي إلى هاذين لولا أن هداه الله ، (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) فلما بين الله منّتهُ على خلقهِ دعا خلقهُ على عبادتهِ قال ربُنا (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12})

إعادة الاستفهام للتهويل أي أن المقصود أن
الأنفُس تسعى في تجاوز ما يحول بينها وبين الجنة
هذا معنى العقبة ، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) قال ربُنا
(فَكُّ رَقَبَةٍ) أي عتقُها وهذا قد لا يتأتى في زماننا لأن
الأسر من الكُفارِ وهو أصل الرق قلّ لقلة الجهاد
لكنه كان شائعاً ذائعاً أيام النبي صلى الله عليه
وسلم وأصحابه من بعدهِ ن ثم قال ربُنا (فَكُّ رَقَبَةٍ}
13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً)
وفق الصناعة النحوية إطعامٌ مصدرٌ منون والنُحاة
يقولون أن المصدر المنون يعملٍ عمل فعلهِ ولهذا
نُصبت كلمة يتيماً وجاءت مفعولاً به للمصدر .
وفق الصناعة الشرعية الإيمانية فإن الله يقول إن
من أعظم القُربات التي يتجاوز بها العقبة الكؤد أن
يقتحم الإنسان العقبة بإطعامهِ لليتامى والمساكين
فإطعام الطعام من أعظم ما يُقرب إلى الله قال
صلى الله عليه وسلم " افشوا السلام واطعموا
الطعام وصلوا بالليل والناسُ نيام تدخلوا الجنة
بسلام " والإنفاقُ جاء في القرآن على ثلاث منازل
: إنفاقٌ عام : مثل قوله جل اسمه وتبارك اسمه
قال (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا
يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) .
وإنفاقٌ أعلى منه : وهو أن ينفُق الإنسان من مالٍ
زائدٍ عندهُ لكنهُ يُحبهُ ومنه قول الله (وَآتَى الْمَالَ
عَلَى حُبِّهِ) وقوله جل وعلا ({وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ
عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً } الإنسان8)
والمرحلة الثالثة : وهي أعلاها أن يُنفق مع حاجتهِ
قال الله في وصف أهل المدينة الأولين قال
(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
{الحشر9) أي بهم حاجة وهذا أعلى المنازل قال
الله (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) المسغبة يوم
جوع ، فالإنسان في زماننا هذا مع اشتداد الغلاء لو

توخا بيوتاً فقيرة أهلها ماسكين أرامل أيتام وإذا جئت تُعطي فالمنّة لمن أخذ منك لا لك ، من أعانك على أن يقبل منك قُربى إلى الله ، وثمّة أعمـــــــــال أحب إلى الله أن تُباشرها بنفسك وأنت تقرأ السيرة فالنبي صلى الله عليه وسلم يبعثُ أُسامة يبعثُ بلالاً يبعثُ زيداً لكنهُ لما جاء ينحر نحر بنفسهِ صلى الله عليه وسلم قُربى إلى الله فالإنسان وإن كان ذا ثراء أو جاه أو منصب لو توخا أياماً ولحظات وليالي وساعات يخرُج فيها من دارهِ لا يعلمهُ أحد إلا الواحد الأحد فيخرُج ويتوخى بيوت وخيرٌ لك أن لا يعرفُك أصحاب البيت ثم تُعطيهم الطعام تكفيهم حتى مؤنة طبخة وهذا من باب التوسع لا من باب الإلزام ثم تعود وقد شعرت أنك فعلت شيئاً تدخرهُ مع الله ، وقد قُلنا قبل قليل أن التجارة مع الله تجارة رابحة بكل المقاييس إذا وقفت بين يدي الله بعد هذا وقرأت وأنت تقوم في الليل (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{8} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً{9} إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً{10} فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) تجد للقرآن لذة عظيمة في قلبك لأنك تقرأُ شيئاً عملته به هذا كمثال لقول الله (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ) والمؤمن يقدم من قدم الله ، ثم قال الله (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) أي التصق حالةُ بالتراب كناية عن شدة الفقر ، ثم قال الله في ترتيبٍ ذكري لا ترتيبٍ زمني قال (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) ومعلوم أن الإيمان مُقدم على الإطعام ولا يُمكن أن يُقبل إطعام إن لم يكن يوجد إيمان فثُم هنا ليست كما يقول النُحاة للتعقيب والتراخي لكنهُ تعقيب وتراخي في الذكر لا في الزمن وإلا لا يقبل الله من

أحدٍ عملاً ما لم يكن ذلك العمل خالصاً لوجههِ قال الله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) أي بربهم (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) الإنسان أحياناً يجد مثبطات تحول بينه وبين طاعة الله فينبغي عليه أن يُصبر نفسهُ ويُصبر غيرهُ ويُصبرهُ غيرهُ على طاعة الله فيقوى تلاحُم المُجتمع والإنسان إذا كان لا يلقى إلا صالحين بقي على صراط الله المستقيم وركب الله المتقين لكنهُ إذا لقي أهل الفساد ثبطوا من عزائمهِ ولم يعينوهُ على طاعة ربهِ جل وعلا قال الله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) وأعظم من يجب عليك أن ترحمهُ والداك وإن كان الإنسان عياذاً بالله عاقاً لوالديهِ لا يُرجى منه رحمه لغيرهما إلا أن تكون رحمة كاذبة يُريد بها شيئاً من الدُنيا ، وحق الوالدة لا يحتاج مثلكم إلى تذكير لكن من تدبر القرآن علم أن من أعظم أسباب التوفيق أن يكون لك والده تُرزق برها تُحقق لها مقصودها قبل أن تطلبهُ لأنها إذا طلبت لم يعود لك خيار ولم يعُد لك منه أصبح الأمر واجباً إن لم يكن معصية لكن إن حققت رغائبها قبل أن تطلُب استصحب وأنت تبرهُا أنك لا تبرُها لأنها ولدتك ما يقولهُ من سطر كتُب الروايات والقصص وكُتب المطالعة والقراءة كلهُ يُستأنس به لكن المقام الأول أنت تبرُ أُمك تبرُ أباك تبرُ شيخك تبرُ جارك تبرُ كُل أحد لسببٍ واحد أن الله أمرك ببره ولو لم يأمرُني الله ببرهِ لما بررتهُ فتبرهُ لأن الله أمرك ببرهِ فلما تتذكر أن الله قال ({وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ }العنكبوت8) فتبرُهما حياءً من ربك الذي وصاك وبقولهِ جل شانه (أَنِ اشْكُرْ لِي) أي بالعبادة (وَلِوَالِدَيْكَ) أي بالبر فتفعل الطاعة لأن الله أمرك بها وتُسابق في الخيرات وتُقدم من قدم الله وتؤخر من أخر الله قال الله (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً

ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16} ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17}) قلنا إن الوالدين أحقُ الناس بالرحمة ، ثم يرحم الإنسان زوجتهُ وأولاده ولا ينبغي أن يكون الإنسان غليظ الكبد على زوجته وأولاده بل يرحمهم وقد قطع نبيكم صلى الله عليه وسلم خطبتهُ ونزل من المنبر من أجل أن يرفع الحسن والحُسين رضوان الله تعالى عليهما قال " إني وجدتُ ابني هاذين يمشيان فيعثُران فلم أصبر حتى نزلتُ وحملتهُما " وأنا أعرف رجال إذا همّ بضرب ابنهِ أو ابنتهِ قال والله لو أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب الحسن أو الحُسين لضربتُهم لكنني أمتنع لأنني لا أعلم هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن ضربهما تأديباً جائزٌ باتفاق أهل الملة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الصلاة مثلا " واضربوهم لعشرٍ " لكن لا تقطع العلائق بينك وبين ابنك وإنما كُن به رحيماً شفيقاً علّ الله جل وعلا أن يرحمك قال صلوات الله وسلامهُ عليه " من لا يرحم لا يُرحم " وقال " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "

ثم قال الله (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18}) ثم بين رفيع درجاتهم وعلو منازلهم في الآخرة فلما ذكر الله الأخيار ذكر الله جل وعلا ما يُضادُ ذلك ممن كفر به جل وعلا وكذب بآيتهِ فقال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ{20})

بقي من هذه السورة كلها أن تعلم أن أي أحد ذكراً كان أو أُنثى إنما هو أحدُ شخصين :

إما شخص عرف الله ومنّ الله عليه في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح فلقي الله فأثابه .

وإما شخص ـ أعاذني الله وإياكم ـ لم يعرف الله ولم تسجُد جبهتهُ للهِ ولم يعقد أناملهُ تسبيحاً لله ولم يتذكر يوم نعمة لله فيحمدهُ ولا قضاءً لله فيصبر عليه ولا رفع يديهِ يُناجي ربهُ ولا ظن يوم أنهُ سيُبعث بين يدي الله فيُهيئ نفسهُ لهذا المقام العظيم ولم يقع في خلدهِ يوم أن الناس سينصرفون إلى جنه أو إلى نار فقسا قلبهُ وأبعد عن ربهِ وأعرض عنه فلما لقي الله جمع الله ذلك كلهُ في قولهِ (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ{36} رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ{37} لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{38} النور) هذا فريق جعـلني الله وإيـاكم منهم .

وأخرون قال الله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{39} النور) وإن من يقرأ قول الله (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) ما كان لهُ بعد ذلك إلا أن يُسلم قلبهُ لربه لأن كُل أحد شاء أم أبى سيقف بين يدي الله ،ثم ما مضى من أعمال وما خبر من أيام وما كان من صالحات أردت بها وجه الله تجدُها في موطنٍ أنتَ أو أنتِ أيتُها الأختُ المُباركة أحوج ما نكون إليها ، والله جل وعلا يوم القيامة يأتي للمؤمن الذي يُريد الله أن يُكرمه فيُريهُ عملهُ الصالح وأنهُ تُقبل منه فيفرح ثم يُريه عملهُ السيئ وأنهُ قد غُفر لهُ ـ ماذا يصنع ؟ ـ يزدادُ فرحا ، ويأتي الله بالكافر فيُرِيهِ عملهُ السيئ فيحزن ثم يُريه عملهُ الصالح دنيوياً كإطعامٍ وحسن

جوارِ وأمثالهِ فإذا رآه وفرح أحبطهُ الله لهُ لأنهُ كان كافراً بالله فيزدادُ حُزناً على حُزن وكلُ عاقلٍ منكم ـ وكلكم عقُلاء ـ يفهم أن هذا كله الذي ذكرناه وحررناه ما يُمكن أن ينالهُ أحد إلا إذا أراد الله فيقطع المؤمن قلبهُ عن التعلُق بكل أحد لا تقول أنا سأذهب إلى محاضرة فُلان ليرق قلبي إسأل الله أن يُرق قلبك في أي مكان ولا تقُل أنا أسمعُ لشريط فُلان لينكسرِ قلبي لا تُعلق قلبك بأحد لا بمحاضرة ولا بقراءة زيدٍ ولا بتأمُلات عمر لكن اسألها الله ثم كيف تأتيك هذا أمرٌ بحسب إرادة الله ، لكن ينبغي أن تكون القلوب مُستسلمة مُذعنه لربها جل وعلا لا يُمكن لها أن تعُول على أحدٍ من الخلق وأن الله جل وعلا إذا أراد بك خيراً أمّنك من حيثِ تخاف كما أن الله إذا أراد بعبدٍ ـ عياذاً بالله ـ خزياً خوفهُ من حيث يُريد الأمان لكن الله قال وهو أصدق القائلين (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{64} يونس) اللهم إنا نســـألك الفـــــوز العظيم ، اللهم إنا نســـألك الفـــــوز العظيم ، اللهم إنا نســـألك الفـــــوز العظيم ، سُبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المُرسلين والحمدُ لله رب العالمين ..